

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## ٢٣ - سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

سميت بهم لاشتغالها على جلائل أوصافهم وتأنبجها، في أولها وفي قوله (١) (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ) إلى قوله (سَابِقُونَ) أفاده المهايي. وهي مكية. واستثنى بعضهم منها آية (٢) (حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ) إلى قوله (مُبْلِسُونَ) وآيها مائة وثمان عشرة. وقد روى الإمام أحمد ومسلم (٣) وغيرها عن عبد الله بن السائب قال: صلى النبي ﷺ بمكة الصبح. فاستفتح سورة المؤمنين. حتى إذا جاء ذكر موسى وهرون، أو ذكر عيسى، أخذته سملة فركع.

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٥٧]. (٢) [٢٣ / المؤمنون / ٦٤].

(٣) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٤١١ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي).

وأخرجه البخاري تعليقا في ١٠ - كتاب الأذان، ١٠٦ - باب الجمع بين السورتين في الركعة

وأخرجه مسلم في: ٤ - كتاب الصلاة، حديث رقم ١٦٣ (طبعنا).

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

- [١] (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)  
 [٢] (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)  
 [٣] (وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)  
 [٤] (وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ)  
 [٥] (وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ)  
 [٦] (إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)  
 [٧] (فَمَنْ ابْتغىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

« قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ » أى دخلوا فى الفوز الأعظم «الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ» أى متذللون مع خوف وسكون للجوارح ، لاستيلاء الخشية والهيبه على قلوبهم «وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ» . أى عن الفضول وما لا يعنى من الأقوال والأفعال ، معرضون فى عامة أوقاتهم ، لاستغراقهم بالجد «وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ» أى للتجرد عن رذيله البخل .

قيل : السورة مكية ، والزكاة إنما فرضت بالمدينة ؟ وجوابه : إن الذى فرض بالمدينة إنما هو النصب والمقابر الخاصة . وإلا فأصل التفضل بالعموم مشروع فى أوائل البعثة ، فلا حاجة إلى دعوى إرادة زكاة النفوس من الشرك والعصيان ، لعدم التبادر إليه «وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ \* إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ» لأنه الحق المأذون فيه

« فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأَلَمَتْهُمُ الْعَادُونَ » أى الكاملون فى العدوان المرتكبونه على أنفسهم .

### تنبيهات :

الأول - دلت الآية على تعليق فلاح العبد على حفظ فرجه ، وأنه لا سبيل له إلى الفلاح بدونه ، وتضمنت هذه الآية ثلاثة أمور : من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين . وأنه من المومنين . ومن العادين . ففاته الفلاح واستحق اسم العدوان ووقع فى اللوم . فمقاساة ألم الشهوة ومماناتها ، أيسر من بعض ذلك . وقد أمر الله تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم . وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم ، مطلع عليها ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر ، جعل الأمر بغضه مقدما على حفظ الفرج . فإن الحوادث مبدؤها من النظر . كما أن معظم النار مبدؤها من مستصغر الشرر . ثم تكون نظرة ، ثم تكون خطرة ، ثم خطوة ، ثم خطيئة . ولهذا قيل : من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه : اللحظات ، والخطرات ، واللفظات ، والخطوات . فينبغى للعبد أن يكون بواب نفسه على هذه الأبواب الأربعة . ويلازم الرباط على ثغورها . فمنا يدخل عليه العدو ، فيجوس خلال الديار ويتبروا ما علوا تبيراً .

الثانى - روى عن الإمام أحمد أنه قال : لا أعلم بعد القتل ذنبا أعظم من الزنى . واحتج بحديث عبد الله <sup>(١)</sup> بن مسعود أنه قال : يارسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . قال قلت : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك . قال قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك . والنبي ﷺ ذكر من كل نوع أعلاه لمطابق جوابه سؤال السائل .

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب تفسير القرآن ، ٢ - سورة البقرة ، ٣ - باب

قوله تعالى : لا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ، حديث ١٩٦٢ .

فإنه سئل عن أعظم الذنب فأجابه بما تضمن ذكر أعظم أنواعه وما هو أعظم كل نوع ، فأعظم أنواع الشرك أن يجعل العبد لله نداً . وأعظم أنواع القتل أن يقتل ولده خشية أن يشاركه في طعامه وشرا به . وأعظم أنواع الزنى أن يزني بجميلة جاره . فإن مفسدة الزنى تتضاعف بتضاعف ما انتهكك من الحق . فالزنى بالمرأة التي لها زوج ، أعظم إثمًا وعقوبة من الزنى بالتي لا زوج لها . إذ فيه انتهاك حرمة الزوج وإفساد فراشه ، وتعليق نسب عليه ، لم يكن منه ، وغير ذلك من أنواع أذاه . فهو أعظم إثمًا وجرماً من الزنى بغير ذات الزوج فإذا كان زوجها جاراً له ، انضاف إلى ذلك سوء الجوار ، وأذى جاره بأعلى أنواع الأذى . وذلك من أعظم البوائق . وقد ثبت عن النبي ﷺ (١) أنه قال : لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه . ولا بائقة أعظم من الزنى بامرأته . فالزنى بمائة امرأة لا زوج لها أيسر عند الله من الزنى بامرأة الجار . فإن كان الجار أخاه ، أو قريباً من أقرابه ، انضم إلى ذلك قطيعة الرحم ، فيتضاعف الإثم . فإن كان الجار غائباً في طاعة الله ، كالصلاة وطلب العلم والجهاد ، تتضاعف الإثم . فإن اتفق أن تكون المرأة رحماً منه ، انضاف إلى ذلك قطيعة رحماً . فإن اتفق أن يكون الزانى محصناً ، كان الإثم أعظم . فإن كان شيخاً كان أعظم إثمًا وهو أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكاهم ولهم عذاب أليم فإن اتفرقت بذلك أن يكون في شهر حرام أو بلد حرام أو وقت معظم عند الله ، كأوقات الصلاة وأوقات الإجابة ، تتضاعف الإثم وعلى هذا ، فاعتبر مفاصد الذنوب وتضاعف درجاتها في الإثم والعقوبة . والله المستعان .

الثالث - أجمع المسلمون على أن حكم التلوّط مع المملوك كحكمه مع غيره . ومن ظن أن تلوّط الإنسان مع مملوكه جائز ، واحتج على ذلك بقوله تعالى (١) (إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ) وقاس ذلك على أمته المملوكة ، فهو كافر يستتاب كما يستتاب المرتد . فإن تاب وإلا قتل وضربت عنقه . وتلوّط الإنسان بمملوكه كتلوطه بمملوك غيره ، في الإثم والحكم . أفاد هذا وما قبله بتامه الإمام ابن القيم في (الجواب الكافي) . وقوله تعالى :

(١) أخرجه البخاري في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٣٩ - باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه ، حديث رقم ٢٣٢٦ ، عن أبي شريح . (٢) [٦ / الأنعام / ٢٣] و [٧٠ / المعارج / ٣٠]

القول في تأويل قوله تعالى :

[ ٨ ] ( وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ )

[ ٩ ] ( وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ )

[ ١٠ ] ( أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ )

[ ١١ ] ( الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ )

« وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ » أى قائلون عليها بحفظها وإصلاحها . والآية تحتل العموم في كل ما أؤتمنوا عليه وعوهدوا ، من جهة الله تعالى ومن جهة الخلق والخصوص فيما حملوه من أمانات الناس وعهودهم . ولذا عدت الخيانة في الأمانة من آيات النفاق في الحديث المشهور (١) « وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ » أى يحافظون عليها . وذلك أن لا يسهوا عنها ويؤدوها في أوقاتها ، وبقيموا أركانها ، ويوكلوا نفوسهم بالاهتمام بها وبما ينبغى أن تتم به أوصافها . وليس هذا تكريراً لما وصفهم به أولاً . فإن الخشوع في الصلاة ، غير المحافظة عليها . وتقديم الخشوع اهتماماً به . حتى كأن الصلاة ، لا يعتمد بها بدونه ، أو لعموم هذا له . وفي تصدير الأوصاف وختمها بأمر الصلاة ، تعظيم لشأنها « أُولَٰئِكَ » أى الجامعون لهذه الأوصاف « هُمُ الْوَارِثُونَ \* الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ » أى الجنة « هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » أى لا يخرجون منها أبداً .

ثم أشار تعالى إلى مبدأ خلقه الإنسان وتقليبه في أطوار شتى ، حتى نما كاملاً ، وإلى ما خلقه من عالم السماء والأرض ، وسخره لمنافعه ، ليشكر مولاه ويعبده ، كما أمره وهداه ، بقوله سبحانه :

(١) أخرجه البخارى في : ٢ - كتاب الإيمان ، ٢٤ - باب علامة المنافق ، حديث

رقم ٣١ ، عن أبى هريرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ)

[١٣] (ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ)

«وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ» أى ابتدأنا خلقه «مِنْ سُلَالَةٍ» أى خلاصة «مِنْ طِينٍ» أى تراب خاط بجاء فصار نباتاً فأكله إنسان فصار دماً «ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً» أى بأن خلقناه منها .  
 أو ثم جعلنا السلالة نطفة بالتصفية «فِي قَرَارٍ» أى مستقر ، وهو رحم المرأة الذى نقل إليه «مَكِينٍ» أى متمكن لا يعجز ما فيه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٤] (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا

فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ

الْخَالِقِينَ)

«ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً» أى بالاستحالة من بياض إلى حمرة كالدّم الجامد «فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً» أى قطعة لحم بقدر ما يمضغ «فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا» أى بأن صليناها وجعلناها عموداً للبدن ، على هيئات وأوضاع مخصوصة ، تقتضيها الحكمة «فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا» أى جعلناه محيطاً بها ساتراً لها كاللباس «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ» أى بتمييز أعضائه وتصويره ، وجعله فى أحسن تقويم «فَتَبَارَكَ اللَّهُ» أى تماظم قدرة وحكمة وتصرفاً «أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» أى المقدرين . فـ (الخالق) بمعنى التقدير كقوله (١) :

وَلَأَنْتَ تَقْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْدَ ضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَقْرِي

(١) قائله زهير بن أبى سلمى من قصيدته التى مطلعها :

لِمَنْ الدَّيَّارُ بُقْنَةَ الْحِجْرِ أَقْوَيْنَ مِنْ حَجَجٍ وَمِنْ دَهْرٍ

يعدح هَرَمَ بن سنان .

لا بمعنى الإيجاد . إذ لا خالق غيره ، إلا أن يكون على الفرض .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥] ( ثُمَّ إِنَّكُمْ بِعَدَدِ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ )

[١٦] ( ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ )

[١٧] ( وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ )

ثُمَّ إِنَّكُمْ بِعَدَدِ ذَلِكَ « أى بعد ما ذكر من الأمور العجيبة وتحصيل هذه الكالات لَمَيِّتُونَ » أى لصاؤون إلى الموت .

قال المهايى : والحكيم لا يتلف ما استكمل به أنواع التكميل ، ولذلك سبغته كما قال « ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ » أى من قبوركم للحساب والمجازاة « وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ » أى سبع سموات هى طرق للملائكة والكواكب فيها مسيرها . قال بعض علماء الفلك ( فى تفسير هذه الآية ) : أى سبعة أفلاك ، لل سبع سموات ، لكل سماء طريق تجرى بما معها من الأثار . قال : فبذلك دلنا الله سبحانه بأن العالم الشمسى ينقسم إلى سبع طرائق ، خلاف طريق الأرض الذى يعينه قوله تعالى ( فَوْقَكُمْ ) فالسافة ابتداء من منتصف البعد بين الشمس وعطارد تقريبا ، إلى منتهى فلك نبتون ، تنقسم إلى سبعة أقسام بحسب بعد كل سيار . كل قسم تجرى فيه سماء بما معها . ويسمى هذا الطريق فلكا . اه . « وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ » أى عن ذلك الخلق ، الذى هو السموات ، أو جميع مخلوقات . فالتعريف على الأول ، عهدى . وعلى الثانى استغراقى . أى ما كنا مهملين أمر الخلق ، بل نحفظه وندير أمره حتى يبلغ منتهى ما قدر له من الكمال ، حسب اقتضته الحكمة ، وتعلقت به المشيئة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ ، وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ)

« وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ » أى بتقدير يصلون معه إلى منفعتهم . أو بمقدار ما علمناه من حاجاتهم « فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ » أى جعلناه قاراً فيها ، يتفجر من الأماكن التي أراد سبحانه إحياءها كقوله<sup>(١)</sup> ( فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ) « وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ » أى إزالته بالتفوير وبغيره ، كما قدرنا على إزاله . ففي تنكير ( ذهاب ) إيماء إلى كثرة طرقه ، ومبالغة في الإبعاد به . قال الزمخشري : فعلى العباد أن يستعظموا النعمة في الماء ، ويقيدوها بالشكر الدائم ، ويخافوا نفاها ، إذا لم تشكر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاحِشٌ مِّنْهُنَّ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

[٢٠] (وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَيْغٍ لِلآكِلِينَ)

« فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا » أى فى الجنات « فَوَاحِشٌ مِّنْهُنَّ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ \* وَشَجَرَةً » بالنصب عطف على ( جنات ) وقرئت مرفوعة على الابتداء . أى ومما أنشئ لكم شجرة « تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ » وهو جبل بفلسطين ، أو بين مصر وأيلة (بفتح الهمزة) محل معروف يسمى اليوم (العقبة) وهو على مراحل من مصر . قاله الشهاب و (الشجرة) شجرة الزيتون ، نسبت إلى الطور لأنه مبدؤها . أو لكثرة ما فيه

(١) [ ٢٩ / الزمر / ٢١ ] .

« تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ » أى ملتبسة بالدهن المستصبح به « وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ » أى وبإدام يغمس فيه الخبز فد (الصبغ) كالصباغ ما يصطبغ به من الإدام . ويختص بكل إدام مائع ، يقال (صبغ اللقمة : دهنها وغمسها) وكل ما غمس فقد صبغ . كذا في (المصباح) و(التاج) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ، نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

[٢٢] (وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ)

« وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً » أى تعتبرون بحالها وتستدلون بها « نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا » أى من الألبان « وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ » أى فى ظهورها وأصوافها وشعورها وتاجها « وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ \* وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ » أى بحلقه وتسخيـره وإلهامه . فله الحمد .

قال الزمخشري : والقصد بالأنعام أى الإبل ، لأنها هى المحمول عليها فى العادة . وقرنها بالفلـك التى هى السفائن ، لأنها سفائن البر .

قال ذو الرمة :

\* سفينةُ برٍّ تحتَ خدِّ زمامها \*

قال الشهاب : وجعلُ الإبل سفائن البر معروف مشهور . وهى استعارة لطيفة . وقد تصرفوا فيها تصرفات بديمة . كقول بعض المتأخرين :

لَمَنْ شَجَرٌ قَدْ أَثْقَلَتْهَا ثَمَارُهَا      سفائنُ برٍّ والسَّرابُ بحارُها

ولما بين تعالى دلائل التوحيد ، تأثره بقصص بعثة الرسل لعلوا كلمته ، فقال سبحانه :

القول في تاويل قوله تعالى :

[٢٣] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ )

[٢٤] (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ )

[٢٥] ( إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ مَقَرَّبًا لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ )

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ \* فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا « أَى الداعى إلى عبادة الله وحده ، بدعوى الرسالة منه « إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ » أى أن يطلب الفضل عليكم ويرأسكم ، كقوله تعالى <sup>(١)</sup> ( وَتَكُونُ لَكُمْ أَعْتَابًا فِي الْأَرْضِ ) « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ » أى إرسال رسول « لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً » أى من السماء « مَا سَمِعْنَا بِهَذَا » أى بمثل ما يدعوا إليه « فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ \* إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ مَقَرَّبًا لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » أى لعله يرجع أو يفيق من جنته أو يتهدى فنكيد له . قال الرازى : واعلم أنه سبحانه ما ذكر الجواب عن شبههم هذه الخمسة ، لركاكتها ووضوح فسادها . وذلك لأن كل عاقل يعلم أن الرسول لا يصير رسولاً إلا لأنه من جنس الملك . وإنما يصير كذلك بأن يتميز من غيره بالمعجزات . فسواء كان من جنس الملك أو من جنس البشر ، فعند ظهور المعجز عليه يجب أن يكون رسولاً . بل جعل الرسول من جملة البشر أولى . لما مرّ بيانه في السور المتقدمة . وهو أن الجنسية مظنة الألفة والمؤانسة . وأما قولهم ( يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ

(١) [ ١٠ / يونس / ٧٨ ] .

عَلَيْكُمْ ) فَإِنْ أَرَادُوا بِهِ إِرَادَتَهُ لِإِظْهَارِ فَضْلِهِ ، حَتَّى يُلْزِمَهُمُ الْإِنْقِيَادَ لَطَاعَتِهِ ، فَهَذَا وَاجِبٌ عَلَى الرَّسُولِ . وَإِنْ أَرَادُوا بِهِ أَنْ يَرْتَفِعَ عَلَيْهِمْ عَلَى سَبِيلِ التَّجَبُّرِ وَالتَّكْبَرِ وَالْإِنْقِيَادِ ، فَالْأَنْبِيَاءُ مَنْزُهِونٌ عَنْ ذَلِكَ . وَأَمَّا قَوْلُهُمْ ( مَا سَمِعْنَا بِهَذَا ) فَهُوَ اسْتِدْلَالٌ بِعَدَمِ التَّقْلِيدِ ، عَلَى عَدَمِ وَجُودِ الشَّيْءِ . وَهُوَ فِي غَايَةِ السَّقُوطِ . لِأَنَّ وَجُودَ التَّقْلِيدِ لَا يَدُلُّ عَلَى وَجُودِ الشَّيْءِ . فَعَدَمُهُ مِنْ أَيْنَ يَدُلُّ عَلَى عَدَمِهِ ؟ وَأَمَّا قَوْلُهُمْ ( بِهِ جَنَّةٌ ) فَقَدْ كَذَّبُوا . لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْلَمُونَ بِالضَّرُورَةِ كَمَا عَقَلَهُ . وَأَمَّا قَوْلُهُمْ ( فَتَرَبَّصُوا بِهِ ) فَضَعِيفٌ . لِأَنَّهُ إِنْ ظَهَرَتِ الدَّلَالَةُ عَلَى نُبُوَّتِهِ وَهِيَ الْمَعْجِزَةُ ، وَجِبَ عَلَيْهِمْ قَبُولُ قَوْلِهِ فِي الْحَالِ ، وَلَا يَجُوزُ تَوْقِيفُ ذَلِكَ إِلَى ظَهْوَرِ دَوْلَتِهِ . لِأَنَّ الدَّوْلَةَ لَا تَدُلُّ عَلَى الْحَقِيقَةِ . وَإِنْ لَمْ يَظْهَرِ الْمَعْجِزُ لَمْ يَجِزْ قَبُولُ قَوْلِهِ ، سِوَاءَ ظَهَرَتِ الدَّوْلَةُ أَوْ لَمْ تَظْهَرِ . وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْأَجُوبَةُ فِي نَهَايَةِ الظُّهُورِ ، لَا جَرَمَ تَرْكُهَا اللَّهُ سَبْحَانَهُ . انْتَهَى .

التقول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] ( قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي )

[٢٧] ( فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ) وَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورَ

فَأَسْلَمْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ

مِنْهُمْ ، وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُخْرَقُونَ )

[٢٨] ( فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا

مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ )

[٢٩] ( وَقُلْ رَبِّ أُنزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ )

[٣٠] ( إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ )

« قَالَ » أَي بَعْدَ مَا أَيْسَ مِنْ إِيمَانِهِمْ « رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي . فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ

أَنَّ اصْنَعَ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا » أى ملتبساً بحفظنا وكلاءنا ، لاتلحقها آفة ولا يعترضها نقص .  
عبر بكثرة آلة الحس التي بها يحفظ الشيء ، ويراعى من الاختلال والزيغ ، عن المبالغة  
فى الحفظ والرعاية ، على طريق التمثيل ، وقيل : المعنى بمرأى منا ومشهد فى حفظنا وكلاءنا .  
بناء على أن المراد بالعين البصر ، وأنه يسمى البصر عينا لأجل أنه مما يتعلق به ويقوم به .  
من باب تسمية الشيء باسم محله . وباسم ما هو قائم به .

قال الإمام ابن فورك فى ( متشابه الحديث ) - بعد حكاية نحو ما تقدم - : وقد اختلف  
أصحابنا فيما يثبت لله عز وجل من الوصف له بالعين . فمنهم من قال : إن المراد به البصر  
والرؤية . ومنهم من قال : إن طريق إثباتها صفة لله تعالى بالسمع . وسبيل القول فيها  
كسبيل القول فى اليد والوجه . انتهى .

ومذهب السلف ؛ أن الصفات يحتذى فيها حدو الذات . فكما أنها منزهة عن التشبيه  
والتمثيل والتكليف ، فكذلك الصفات إثباتها منزه عن ذلك وعن التحريف والتأويل .  
وقوله تعالى « وَوَحِينَا » أى أمرنا وتعليمنا كيف تصنع « فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا » أى عذابنا  
« وَفَارَ التَّنُورُ » كناية عن الشدة . كقولهم ( حمى الوطيس ) . و ( التنور ) كانون الخبز  
حقيقة . وأطلقه بعضهم على وجه الأرض ومنبع الماء ، الآية مجازاً « فَأَسْلُكُ فِيهَا » أى  
فأدخل فى الفلك « مِنْ كُلِّ » أى من كل أمة « زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ  
عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى فى الدعاء لهم بالنجاة ، عند مشاهدة  
هلاكهم « إِنَّهُمْ مُعْرِقُونَ » أى فى بحر الهلاك ، كما غرقوا فى بحر الضلال وظلمهم أنفسهم ،  
بعد أن أملى لهم الدهر المتطاوّل « فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ  
الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ \* وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي » أى فى السفينة أو منها « مُنْزَلاً  
مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ » أى ابن أتراته منزل قربك « إِنَّ فِي ذَلِكَ » أى فيما فعل  
بنوح وقومه « لآيَاتٍ » أى يستدل بها ويعتبر أولو الأبصار « وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ »

أى مصيبيين قوم نوح ببلاء عظيم وعقاب شديد . أو مختبرين بهذه الآيات عبادنا ، لننظر من يعتبر ويدكر . كقوله تعالى (١) (وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) و (إن) مخففة على الأصح - وقيل نافية . واللام بمعنى (إلا) والجملة حالية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ)

« ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ » هم عاد أو ثمود . قال الشهاب : ليس فى الآية تعيين لهؤلاء . لكن الأول مأثور عن ابن عباس رضى الله عنهما . وأيده فى (الكشف) بمجىء قصتهم بعد قصة نوح فى سورة الأعراف وهود وغيرها . وعليه أكثر المفسرين . ومن ذهب إلى أنهم ثمود صالح عليه السلام ، استدل بذكر الصيحة لأنهم هم المهلكون بها . كما صرح به فى هذه السورة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ آلِهَ غَيْرُهُ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ)

[٣٣] (وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ آلِ آخِرَةٍ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ)

[٣٤] (وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ)

[٣٥] أَيْدِكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِيتُمْ وَكُنْتُمْ تَرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ

(١) [٥٤ / القمر / ١٥] .

[٣٦] ( هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ )

[٣٧] ( إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ )

[٣٨] ( إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ )

[٣٩] ( قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ )

[٤٠] ( قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ )

[٤١] ( فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ، فَبِعَدَدِ اللِّقُومِ الظَّالِمِينَ )

« فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ \*  
 وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلقاءِ الآخِرَةِ وَأَتَرَفْنَاهُمْ » أى نعمناهم  
 « فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا  
 تَشْرَبُونَ \* وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ » أى لعزة أنفسكم ،  
 بالتذلل لئلكم « أَيْمِدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ »  
 أى من الأجدات أحياء كما كنتم « هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ » تكرر لئنا كيد البعد .  
 أى بَعْدَ الوَقْعِ أو الصَّحَّةُ لما توعدون من البعث « إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ  
 وَنَحْيَا » أى يموت بعض ويولد بعض . لينقرض قرن ويأتى قرن آخر . « وَمَا نَحْنُ  
 بِمَبْعُوثِينَ \* إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ \* قَالَ رَبِّ  
 انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ \* قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ \* فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ » أى  
 العقوبة الهائلة ، أو صيحة ملك « بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً » أى كغثاء السيل « فَبِعَدَدِ  
 اللِّقُومِ الظَّالِمِينَ » أى هلاكهم . إخبار أو دعاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] ( ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخِرِينَ )

[٤٣] ( مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ )

[٤٤] ( ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرَى ، كَلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولَهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا

بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ، فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ )

[٤٥] ( ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ )

« ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخِرِينَ \* مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا » أى وقتها الذى عين لهلاكها « وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ \* ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرَى » أى متواترين ، واحداً بعد واحد « كَلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولَهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا » أى فى الإهلاك « وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ » أى أخباراً يُسمر بها ويتمجب منها . يعنى أنهم فنوا ولم يبق إلا خبرهم ، إن خيراً وإن شراً .

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

« فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ \* ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ

مُبِينٍ » أى حجة واضحة ملزمة للخصم . والمراد به الآيات نفسها . عبر عنها بذلك على طريقة العطف ، تنبيهاً على جمعها لعنوانين جليلين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] ( إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ )

[٤٧] ( فَقَالُوا أَلْوَيْمُنُ لِبَشَرِينَ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ )

[٤٨] ( فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ )

« إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا » أى عن الاقبياد وإرسال بنى إسرائيل مع موسى لأرض كنعان ، وتحريرهم من تلك العبودية لهم « وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ » أى متمردين « فَقَالُوا أَنْوَمِنُ ابْشَـرِـنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ \* فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ » أى الغرقين فى البحر .

فائدة :

قال الزمخشري : البشريكون واحداً وجمعاً<sup>(١)</sup> (بَشَرًا سَوِيًّا)<sup>(٢)</sup> (لِبَشَرَيْنِ)<sup>(٣)</sup> فَإِنَّمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ (و) (مثل) و(غير) بوصف بهما الاثنان والجمع والمذكر والمؤنث (إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ)<sup>(٤)</sup> (وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ)<sup>(٥)</sup> ويقال أيضاً : هما مثلاه وهم أمثاله<sup>(٦)</sup> (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)

[٥٠] (وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ)

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ » أى التوراة « لَعَلَّهُمْ » أى قومه « يَهْتَدُونَ » أى إلى طريق الحق ، بما فيها من الشرائع والأحكام « وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً » أى دلالة على قدرتنا الباهرة . لأنها ولدته من دون مسيس . فالآية امر واحد نسب إليهما . أو المعنى : وجعلنا ابن مريم آية بما ظهر منه من الخوارق ، وأمه آية بأنها ولدته من غير مسيس . فحذفت الأولى لدلالة الثانية عليها « وَآوَيْنَاهُمَا » أى جعلنا مأواهما أى منزلها « إِلَىٰ رَبْوَةٍ » أى أرض مرتفعة « ذَاتِ قَرَارٍ » أى مستقر من أرض منبسطة مستوية . وعن قتادة : ذات ثمار

(١) [ ١٩ / مريم / ١٧ ] . (٢) [ ٢٣ / المؤمنون / ٤٧ ] .

(٣) [ ١٩ / مريم / ٢٦ ] . (٤) [ ٤ / النساء / ١٤٠ ] .

(٥) [ ٦٥ / الطلاق / ١٢ ] . (٦) [ ٧ / الأعراف / ١٩٤ ] .

وماء . يعنى أنه لأجل الثمار يستقر فيها ساكنوها « وَمَعِينٍ » أى وماء معين ظاهر جارٍ .  
من (معن الماء إذا جرى) أو مدرك بالمعين (من عانه) إذا أدركه بعينه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] ( يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ )  
« يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » نداء  
وخطاب لجميع الأنبياء باعتبار زمان كلِّ وعهده . فدخل فيه عيسى دخولاً أولياً . أو يكون  
ابتداء كلام ذكر تنبيهاً على أن تهيبته أسباب التمتع لم تكن له خاصة . وأن إباحة الطيبات  
للأنبياء شرع قديم . واحتجاجاً على الرهابة فى رفض الطيبات . وقوله ( وَاعْمَلُوا صَالِحًا )  
أى عملاً صالحاً . فإنه الذى به سعادة الدارين . وقوله ( إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ) أى ذو علم  
لا يخفى على منها شىء . فأنا مجازيكم بجميعها ، وموفيكم أجوركم وثوابكم عليها ، فخذوا فى  
صالحات الأعمال واجتهدوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] ( وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ )

« وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ » أى واعلموا أن هذه ملتكم وشريعتكم التى أنتم عليها  
« أُمَّةً وَاحِدَةً » أى ملة واحدة ، وهى شريعة الإسلام . إسلام الوجه لله تعالى بعبادته  
وحده . كقوله<sup>(١)</sup> ( إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ) (فالأمة) هنا بمعنى الملة والدين « وَأَنَا  
رَبُّكُمْ » أى من غير شريك « فَاتَّقُونِ » أى تخافوا عقابى ، فى مفارقة الدين والجماعة .  
قيل : إنه اختير على قوله ( فَاعْبُدُونِ ) الواقع فى سورة الأنبياء ، لأنه أبلغ فى التخويف ،  
لذكرة بعد إهلاك الأمم ، بخلاف ما ثمة . وهذا بناء على أنه تذييل للقصاص السابقة ، أو لقصة

(١) [٣ / آل عمران / ١٩] .

عيسى عليه الصلاة والسلام ، لا ابتداء كلام . فإنه حينئذ لا يفيد . إلا أن يراد أنه وقع في الحكاية لهذه المناسبة . كذا في ( العناية ) .

ثم قص ما وقع من أمم الرسل بعدهم من مخالفة الأمر ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى:

[٥٣] ( فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا ، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ )

[٥٤] ( فَذَرَهُمْ فِي نَعْمَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ )

« فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا » أى جعلوا دينهم بينهم قطعاً وفاقاً متنوعة « كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » أى كل فرقة من فرق هؤلاء المختلفين المتقطعين دينهم ، فرح بباطله ، مطمئن النفس ، معتقد أنه على الحق « فَذَرَهُمْ فِي نَعْمَتِهِمْ » أى في جهالتهم ، ومشيمهم مع هوائهم ، ونبذهم كتاب الله « حَتَّىٰ حِينٍ » أى إلى وقت يستفيقون فيه من سباتهم ، بظهور دين الله وعلو كلمته وهزم عدوه . وشبه جهالتهم بالماء الذى يغمر القامة ، لأنهم مغمورون فيها .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٥٥] ( أَيْحْسِبُونَ أَنَّمَا نُنَادُهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ )

[٥٦] ( نَسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ، بَلْ لَا يَشْعُرُونَ )

« أَيْحْسِبُونَ أَنَّمَا نُنَادُهُمْ بِهِ » أى نعطيهم إياه ، ونجعله مدداً لهم « مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ » نَسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ » أى كلاً . لا تفعل ذلك . بل هم لا يشعرون أصلاً . كالبهايم لا فطنة لهم ولا شعور ، ليتأملوا ويعرفوا أن ذلك الإمداد استدراج لهم واستعجار إلى زيادة الإثم . وهم يحسبونه معاملة فيما لهم فيه إكرام . ثم بين سبحانه من له المسارعة في الخيرات من أوليائه وعباده ، بقوله تعالى :



« وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ » أى إياها سابقون . أى يفتنونها قبل الآخرة ، حيث عجبت لهم فى الدنيا ، فتكون اللام لتقوية العمل . كما فى قوله تعالى<sup>(١)</sup> ( هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ) وقيل : المراد ( بِالْخَيْرَاتِ ) الطاعات . والمعنى : يرغبون فى الطاعات والعبادات أشد الرغبة . وهم لأجلها فاعلون السابق ، أو لأجلها سابقون الناس ، والله أعلم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] ( وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ، وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ )

[٦٣] ( بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ) ( وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » جملة مستأنفة ، سميقت للتحريض على ما وصف به السابقون من فعل الطاعات المؤدى إلى نيل الخيرات ، ببيان سهولته وكونه غير خارج عن حد الوسع والطاقه . أى سنتنا جارية على الانكاف نفساً من النفوس إلا ما فى وسعها . أول للترخيص فيما هو قاصر عن درجة أعمال أولئك الصالحين ، ببيان أنه تعالى لا يكلف عباده إلا ما فى وسعهم . فإن لم يبلغوا فى فعل الطاعات مراتب السابقين ، فلا عليهم ، بعد أن يبذلوا طاقتهم ويستغفروا وسعهم ، أفاده أبو السعود .

« وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ » وهو كتاب الأعمال . كقوله تعالى<sup>(٢)</sup> ( هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ، إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ) « وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ \* بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا » أى مما عليه هؤلاء الموصوفون من المؤمنين « وَلَهُمْ أَعْمَالٌ » أى سيئة كثيرة « مِنْ دُونِ ذَلِكَ » أى الذى ذكر من كون قلوبهم فى غفلة ، وهى فنون كفرهم ومعاصيهم « هُمْ لَهَا عَامِلُونَ » أى معتادون لا يزيأولونها .

(١) [ ٢٣ / المؤمنون / ٦٣ ] . (٢) [ ٤٥ / الجنائية / ٢٩ ] .

تنبيه :

أعرب الإمام أبو مسلم الأصفهانيّ فيما نقله عنه الرازيّ ، فذهب إلى أن قوله تعالى (بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا . . . ) إلى آخر الآية ، من تسمية صفات المؤمنين المشفقين . كأنه سبحانه قال بعد وصفهم ( ولا تكلف نفسك إلا وسعها ) ونهايته ما أتى به هؤلاء المشفقون ، ولدينا كتاب يحفظ أعمالهم ينطق بالحق وهم لا يظلمون . بل نوفر عليهم ثواب كل أعمالهم ، (بل قلوبهم في غمرة من هذا) هو أيضا وصف لهم بالحيرة كأنه قال : وهم مع ذلك الوجع والخوف كالتحيرين في جعل أعمالهم مقبولة أو مردودة ، ولهم أعمال من دون ذلك . أي لهم أيضا من التوافل ووجوه البر سوى ما هم عليه . إما أعمالا قد عملوها في الماضي أو سيعملونها في المستقبل . ثم إنه تعالى رجع .

قال الرازيّ وقول أبي مسلم أولى لأنه إذا أمكن ردّ الكلام إلى ما يتصل به من ذكر المشفقين ، كان أولى من رده إلى ما بعد منه . وقد يوصف المرء لشدة فكره في أمر آخرته ، بأن قلبه في غمرة ، ويراد أنه قد استولى عليه الفكر في قبول عمله أو رده ، وفي أنه هل أداه كما يجب أو قصر . انتهى .

وبعد فإن نظم الآية الكريمة يحتمل لذلك . ولكن لم يرد وصف الغمرة في حق المؤمنين أصلاً بل لم يوصف بها إلا قلوب المجرمين . كما تراه في الآيات أولاً . فالذوق الصحيح ورعاية نظائر الآيات ، يأبى ما أعرب به أبو مسلم أشد الإياء . والله أعلم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٤] ( حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجَارُونَ )

« حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ » أي متنعّميهم « بِالْعَذَابِ » أي بالانتقام ، مثل أخذهم يوم بدر « إِذَا هُمْ يَجَارُونَ » أي يصرخون باستغاثة أو الآية . كقوله

تعالى<sup>(١)</sup> . ( ذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النِّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا \* إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا \*  
وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ) . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] ( لَا تَجَارُوا الْيَوْمَ ، إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصِرُونَ )

[٦٦] ( قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِبُونَ )

[٦٧] ( مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ )

« لَا تَجَارُ الْيَوْمَ » أى يقال لهم تبكيتاً لهم : لا تجاراً ، فإن الجوار غير نافع لكم  
« إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصِرُونَ \* قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ  
تَنكِبُونَ » أى تعرضون عن سماعها أشد الإعراض « مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ » أى بالبيت الحرام .  
والذى سوغ الإضرار ، شهرتهم بالاستكبار به ، وأن لا مفخر لهم إلا أنهم قوامه . وجوز  
تضمين ( مستكبرين ) معنى ( مكذبين ) والضمير للتنزيل الكريم . أى مكذبين تكذيب  
استكبار . ولم يذكر احتمال إرجاع الضمير ( للنكوص ) إشارة إلى زيادة عقوبهم ، وأنهم  
يفتخرون بهذا الإعراض ولا يرهبون مما يندرون به ، كقوله<sup>(٢)</sup> ( وَلِيَّ مُسْتَكْبِرًا » وليس  
ببعيد . فتأمل . « سَامِرًا تَهْجُرُونَ » يعنى أنهم يسمرون ليلاً بذكر القرآن وبالطعن فيه ،  
وتسميته سحراً وشعراً ونحو ذلك . وهو معنى ( تهجرون ) من ( الهجر ) بالضم ، وهو  
الفحش فى القول . أو معناه تعرضون . من ( الهجر ) بالفتح .

تنبيه :

قال أبو البقاء : ( سامراً ) حال أيضاً وهو مصدر . كقولهم ( قم قائماً ) وقد جاء من  
المصادر على لفظ اسم الفاعل نحو العاقبة والعافية . وقيل : هو واحد فى موضع الجميع . انتهى

(١) [ ٧٣ / ١١ - ١٣ ] . (٢) [ ٣١ / لقمان / ٧ ] .

فيكون واحداً أقيم مقام الجمع . وقيل هو اسم جمع كحاج وحاضر وراكب وغائب . قال الشهاب : وعلى كونه مصدرًا فيشمل القليل والكثير أيضاً ، باعتبار أصله . ولكن مجيء المصدر على وزن ( فاعل ) نادر . وقرئ ( سُمَرًا ) بضم وتشديد . ( سَمَار ) بزيادة ألف .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] ( أَفَلَمْ يَتَذَكَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ )

« أَفَلَمْ يَتَذَكَّرُوا الْقَوْلَ » أى القرآن ، ليعلموا أنه الحق المبين ، فيصدقوا به ويعتدوا به . « أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ » أى من الهدى والحق ، فاستبدعوه واستبعدوه ، فوقعوا فيما وقعوا فيه من الكفر والضلال . مع أن المجيء بما لم يعمد ، لا يوجب النفرة . لأن المؤلف قد يكون باطلاً ، فتمتضى به الحكمة التحذير منه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٩] ( أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ )

[٧٠] ( أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ، بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ )

« أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ » أى جاحدون بما أرسل به . وهذا توبيخ آخر يشير إلى عظيم جهالتهم ، بأنهم ما عرفوا شأنه ولا دروا سر ما بث به مما يؤسف له . كما قال <sup>(١)</sup> ( يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ) « أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ » أى جنون ، أو جن يخبلونه . وهذا توبيخ آخر ، فيه تعجب من تلونهم في الجحود ، وتفنتهم في العناد . ثم أشار إلى أنه لم يحملهم على ذلك إلا أنفتهم للحق كبراً وعتواً بقوله « بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ » أى لما فيهم من الزيف والانحراف .

(١) [٣٦ / يس / ٣٠] .

قال القاشاني : ولما أبطلوا استعداداتهم وأطفأوا نورها بالرين والطبع ، على مقتضى قوى النفس والطبع ، واشتد احتياجهم بالغواشى الظلمانية عن نور الهدى والعقل ، لم يمكنهم تدبر القول ولم يفهموا حقائق التوحيد ، والعدل فنسبوه إلى الجنة ولم يعرفوه ، للتقابل بين النور والظلمة ، والتضاد بين الباطل والحق ، وأنكروه وكرهوا الحق الذي جاء به .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ،

بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ)

[٧٢] (أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا نَخْرُجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

[٧٣] (وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[٧٤] (وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَا كَبِيرُونَ)

« وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ » أى ولو كان

ما كرهوه من الحق الذى هو التوحيد والعدل المبعوث بهما الرسول صلوات الله عايه ، موافقا لأهوائهم المتفرقة فى الباطل ، الناشئة من نفوسهم الظالمة المظلمة ، لفسد نظام الكون لانعدام العدل الذى قامت به السموات والأرض ، والتوحيد الذى به قوامهما . فلزم فساد الكون لأن مناط النظام ليس إلا ذلك . وفيه من تنويه شأن الحق ، والتنبيه على سمو مكانه ، ما لا يخفى « بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ » إضراب عن توبيخهم بكرامته ، وانتقال إلى لومهم بالنفور عما ترغب فيه كل نفس من خيرها . أى ليس هو مكروهاً بل هو عظة لهم لو اتعظوا . أو نخرهم أو متمنأهم لأنهم كانوا يقولون <sup>(١)</sup> (لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ \* لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ) « فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ » أى بالنكوص عنه . وأعاد الذكر تفخيماً . وأضافه لهم لسبقه . وفى سورة الأنبياء <sup>(٢)</sup> (ذِكْرٍ رَبِّهِمْ) لاقتضاء ما قبله له « أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا »

(١) [ ٣٧ / الصافات / ١٦٨ و١٦٩ ] . (٢) [ ٢١ / الأنبياء / ٤٢ ] .

أى جملاً على أداء الرسالة ، فلاجل ذلك لا يؤمنون «فَخَرَّاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ» أى عطاؤه «وهو خَيْرُ الرَّازِقِينَ \* وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ \* وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَا كِبُونَ» أى منحرفون . قال القاشانى : الصراط المستقيم الذى يدعوهم إليه ، هو طريق التوحيد المستلزم لحصول العدالة فى النفس ، ووجود المحبة فى القلب . وشهود الوحدة . والذين يحتجبون عن عالم النور بالظلمات ، وعن القدس بالرجس ، إنعاسهم منهمكون فى الظلم والبغضاء والعداوة ، والركون إلى السكثرة . فلا جرم أنهم عن الصراط ناكبون منحرفون إلى ضده . فهو فى واد وهم فى واد . وقال الزخشري : قد أزمهم الحجة فى هذه الآيات ، وقطع معاذيرهم وعللهم ، بأن الذى أرسل إليهم رجل معروف أمره وحاله ، مخبور سره وعلته ، خليق بأن يجتبي مثله للرسالة من بين ظهرائهم ، وأنه لم يعرض له حتى يدعى بمثل هذه الدعوى العظيمة بباطل ، ولم يجعل ذلك سلماً إلى النيل من دنياهم ، واستمطاء أموالهم ، ولم يدعهم إلا إلى دين الإسلام ، الذى هو الصراط المستقيم . مع إبراز المسكنون من أدوائهم ، وهو إخلالهم بالتدبر والتأمل ، واستهتارهم بدين الآباء الضلال من غير برهان ، وتعلمهم بأنه مجنون ، بعد ظهور الحق ، وثبات التصديق من الله بالمعجزات والآيات النيرة ، وكرهتهم للحق وإعراضهم عما فيه حظهم من الذكر . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُوفِ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

«وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُوفِ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ» .

قال ابن جرير<sup>(١)</sup> : أى ولو رحمتنا هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة ، ورفعنا عنهم ما بهم من القحط والجذب ، وضر الجوع والمزال (لَلْجُوفِ فِي طُغْيَانِهِمْ) يعنى فى عتوتهم وجرأتهم على

(١) انظر الصفحة رقم ٤٤ من الجزء الثامن عشر (طبعة الحلبي الثانية) .

رَبِّهِمْ (بِعَمَهُونَ) يعني يترددون . وأشار ابن كثير<sup>(١)</sup> إلى معنى آخر فقال : يخبر تعالى عن غلظهم في كفرهم ، بأنه لو أراح عنهم الضر ، وأفهمهم القرآن ، لما انقادوا له ، ولا استمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم . كما قال تعالى<sup>(٢)</sup> ( وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ، وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ) وقال<sup>(٣)</sup> ( وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذَّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ \* بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُحْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ) الآية . فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون ، لو كان كيف يكون . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٦] ( وَلَقَدْ أَخَذْنَاَهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ )

« وَلَقَدْ أَخَذْنَاَهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ » .

قال ابن جرير<sup>(٤)</sup> : أى ولقد أخذنا هؤلاء المشركين بعذابنا ، وأزناهم بأسنا وسخطنا ، وضيقنا عليهم معاشهم ، وأجدبنا بلادهم ، وقتلنا سراهم بالسيف فما استكانوا لربهم . أى فما خضعوا لربهم ؛ فینقادوا لأمره ونهيه ، وينبوا إلى طاعته . وذكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ حين أخذ الله قريشا بسنى الجذب ، إذ دعا عليهم رسول الله ﷺ . وعن الحسن قال : إذا أصاب الناس من قبل الشيطان بلاء ، فإنما هي نقمة . فلا تستقبلوا نقمة الله بالحمية . ولكن استقبلوها بالاستغفار ، وتضرعوا إلى الله . وقرأ هذه الآية ( وَلَقَدْ أَخَذْنَاَهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ) .

(١) انظر الصفحة رقم ٢٥١ من الجزء الثالث .

(٢) [ ٨ / الأنفال / ٢٣ ] . (٣) [ ٦ / الأنعام / ٢٧ و ٢٨ ] .

(٤) انظر الصفحة رقم ٤٤ من الجزء الثامن عشر ( طبعة الحلبي الثانية ) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٧] ( حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ )

« حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ » يعنى ما نزل بهم من القتال والقتل يوم بدر ، أو باب المجاعة والضر ، وهو ما روى عن مجاهد واختاره ابن جرير <sup>(١)</sup> « إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ » أى حزنى نادمون على ما سلف منهم ، فى تكذيبهم بآيات الله ، فى حين لا ينفهمهم الغدم والحزن . ثم أشار تعالى إلى قدرته على البعث بآياته المبصرة فى الأنفس والآفاق ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] ( وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ )

« وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ » أى لتسمموا وتبصروا وتفقهوا « قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ » أى نعمة الله فى ذلك ، بصرفها لما خلقت له . وهو أن يدرك وفى كل شىء له آيةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ الْوَاحِدُ

والقلة فى الآية هذه ونظائرهما ، بمعنى النفي ، فى أسلوب التنزيل الكريم . لأن الخطاب للمشركين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] ( وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ )

[٨٠] ( وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ )

[٨١] ( بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ )

(١) انظر الصفحة رقم ٤٦ من الجزء الثامن عشر ( طبعة الحلبي الثانية ) .

« وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ » أى خلقكم وبشكم بالتمناسل فيها « وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » أى تجمعون يوم القيامة، بعد تفرقكم إلى موقف الحساب « وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي » أى خلقه ، أى يجعلهم أحياء، بعد أن كانوا نطقاً أمواتاً، ينفخ الروح فيها، بعد الأطوار التي تأتي عليها « وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » أى بالطول والقصر . فهو متوايه ولا يقدر على تصر يفهما غيره « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى : إن من أنشأ ذلك ابتداء من غير أصل ، لا يمنع عليه إحياء الأموات بعد فناءهم . ثم بين تعالى أنهم لم يعتبروا بآياته ، ولا تدبروا ما احتج عليهم من الحجج الدالة على قدرته على فعل كل ما يشاء ، بقوله « بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ » أى من الأمم المكذبة رسلاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٢] ( قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ )

[٨٣] ( لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ )

« قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لَمَبْعُوثُونَ » أى أحياء ، كهيئتنا قبل الممات « لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ » أى ما سطره فى كتبهم ، مما لا حقيقة له :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] ( قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ )

[٨٥] ( سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ )

« قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ \* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » أى فتعلمون أن من ابتداء ذلك ، قدر على إعادته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٦] ( قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ )

[٨٧] ( سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ )

« قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ \* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ »

أى عقابه على شرككم به ، وتكذيبكم خبره وخبر رسوله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٨] ( قُلْ مَنْ مِنْ يَدَيْهِ مَلَائِكَةٌ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ )

[٨٩] ( سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ فَأَنِي تُسْحَرُونَ )

« قُلْ مَنْ مِنْ يَدَيْهِ مَلَائِكَةٌ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ » أى يغيث من أراد ، ممن قصد بسوء

« وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ » أى ولا أحد يمنع من إرادته هو بسوء ، فيدفع عنه عذابه وعقابه « إِنْ

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ \* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِي تُسْحَرُونَ » أى تحذرون عن توحيد طاعته ، مع ظهور الأمر وتظاهر الأدلة فـ (السحر) مستعار للخديعة . وتكرير ( إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ )

لاستهانتهم ، وتجهيلهم ، لسجال ظهور الأمر .

قال فى (الإكليل) : قال مكى : فى هذه الآيات دلالة على جواز محاجة الكفار والمبطلين ،

وإقامة الحجة وإظهار الباطل من قولهم ومذهبهم ، ووجوب النظر فى الحجج على من خالف

فى دين الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] ( بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ )

[٩١] (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ، إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ )

[٩٢] (عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ )

[٩٣] (قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيئِي مَا يُوعَدُونَ )

[٩٤] (رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ )

« بَلْ أَنْتَنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » أى فى دعواهم أن له ولداً ومعه شريكاً « مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ، إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ ، وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ » لأنه يجب أن يتخالفوا بالذات، وإلا لما تُصوِّرُ العدد والمتخالفان بالذات يجب أن يتخالفا فى الأفعال. فيذهب كل بما خلقه، ويستبد به، ويظهر بينهم التحارب والتغالب، فيفسد نظام الكون ، كما تقدم بيانه فى آية<sup>(١)</sup> (لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ) « سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ \* عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ \* قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيئِي مَا يُوعَدُونَ » أى من العذاب . أى إن كان لا بد من أن تربي . لأن (ما) و(النون) للتأكيد « رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » أى نجنى من عذابهم . وفيه إيذان بكال فظاعة ما وعدوه من العذاب ، وكونه بحيث يجب أن يستعبد منه من لا يمكن أن يحيق به . ورد لإنكارهم إياه واستعجالهم به ، استهزاء . وتكرير النداء ، لإظهار زيادة الابتهاال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لِقَادِرُونَ )

(١) [ ٢١ / الأنبياء / ٢٢ ] .

[٩٦] (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ ، نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ )

[٩٧] ( وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ )

[٩٨] ( وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ )

[٩٩] ( حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ )

[١٠٠] ( لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ، كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ،

وَمِنْ وَّرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمٍ يُبْعَثُونَ )

« وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ » أى من العذاب « لِقَادِرُونَ » أى : وإنما تؤخره لحكمة بلوغ الكتاب أجله « ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » أى بالخلة التى هى أحسن الخلال ، وهو العفو والصفح « السَّيِّئَةِ » أى أذى المشركين « نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ » أى فسيرون جزاءه « وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ » أى وساوسهم المغرية على الباطل والشرور والفساد ، والصدّة عن الحق « وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ » أى يحضرونى فى حال من الأحوال « حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ \* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ » أى حتى إذا احتضر وشاهد أمارات العذاب ، وعاین وحشة هيئات السيئات ، تمنى الرجوع ، وأظهر الندامة ، ونذر العمل الصالح فى الإيمان الذى ترك . وقوله تعالى « كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ » أى قوله ( رَبِّ ارْجِعُونِ ) الخ « هُوَ قَائِلُهَا » أى لا يجاب إليها ولا تسمع منه ، يعنى أنه لم يحصل إلا على الحسرة والندامة ، والتلفظ بالفاظ التحسر والندم ، والدعوة دون المنفعة والفائدة والإجابة . والآية نظيرها قوله تعالى (١) « وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَنَّ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولُ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقْتُ وَأَكُنُ مِنَ الصَّالِحِينَ » « وَمِنْ وَّرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمٍ يُبْعَثُونَ » أى حائل يحول بينهم وبين الرجعة ، يلبثون فيه إلى يوم القيامة .

(١) [٦٣ / المنافقون / ١٠] .

لطيفة :

الواو في ( ارجمون ) قيل لتعظيم المخاطب وهو الله تعالى ، وردّه ابن مالك بأنه لا يعرف أحداً يقول ( رب ارحموني ، ونحوه ) لما فيه من إيهام التعدد . مدفوع بأنه لا يلزم من عدم صدور عنا كذلك ، ألا يطلقه الله تعالى على نفسه . كما في ضمير المتكلم . وقيل إنه لتكرير قوله ( ارجموني ) كما قيل في ( قفا ) و( أطرقا ) إن أصله ( ففقف ) على التأكيد ، وبه فسر قوله تعالى <sup>(١)</sup> ( أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ) قال الشهاب : فيكون من باب استعارة لفظ مكان لفظ آخر لنسكته ، بقطع النظر عن معناه ، وهو كثير في الضمائر . كاستعمال الضمير المجرور الظاهر مكان المرفوع المستتر في ( كفي به ) حتى لزم انتقاله عن صفة إلى صفة أخرى ، ومن لفظ إلى آخر . وما نحن فيه من هذا القبيل . فإنه غير الضميران المستتران إلى ضمير مثنى ظاهر . فلزم الاكتفاء بأحد لفظي الفعل ، وجعل دلالة الضمير على المثنى على تكرير الفعل ، قائماً مقامه في التأكيد ، من غير تجوز فيه . ولا بن جنى في ( الخصائص ) كلام يدل على ما ذكرناه . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠١] ( فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ )

« فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ » أي لشدة الهول من هجوم ماشغل البال حتى زال به التعاطف والتآلف ، إذ <sup>(٢)</sup> ( يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ \* وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ \* وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ \* لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ) ونفي نفع النسب ، إذا دهم مثل ذلك معروف .

كما قال :

لَا نَسَبَ الْيَوْمَ وَلَا خُلَّةً      اتَّسَعَ الْخُرْقُ عَلَى الرَّاقِعِ

(١) [ ٥٠ / ق / ٢٤ ] . (٢) [ ٨٠ / عبس / ٣٤ - ٣٧ ] .

« وَلَا يَتَسَاءَلُونَ » أى لا يسأل بعضهم بعضاً ، لعظم الفزع وشدة ما بهم من الأهوال ، وذوهم عما كان بينهم من الأحوال ، فتقطع العلائق والوصل التي كانت بينهم ، وجلي أن نفى التساؤل إنما هو وقت النفخ ، كما دل عليه قوله ( فَإِذَا ) أى فوق القيامة من القبور وهو المطلع يشتغل كل بنفسه . وأما ما بعده فقد يقع التساؤل ، كما قال تعالى (١) ( وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ) لأن يوم القيامة يوم ممتد . ففيه مشاهد ومواقف . فيقع في بعضها تساؤل وفي بعضها دهشة تمنع منه .

تنبیه :

روى هنا بعض المفسرين أخباراً في نفع النسب النبوي . وحيداً لو روى شيء منها في الصحيحين ، أو في مسانيد من التزم الصحة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] ( فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ )

[١٠٣] ( وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ )

[١٠٤] ( تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ )

« فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ » أى رجحت حسناته « فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ \* وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ » أى بتضييع ما منحت من الاستعداد لأن تريح في تجارة الكمال ، بفسرة الإيمان وصالح الأعمال ، ولله در القائل :

إذا كان رأس المال عمرك ، فاحترس عليه من الإنفاق في غير واجب

« فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ \* تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ » أى تحرقها . وتخصيص الوجوه لأنها

أشرف الأعضاء . فبيان حالها أزجر عن المعاصي المؤدية إلى النار « وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ » أى مشوهون ، قبيحو المنظر . ويقال لهم تعنيفاً وتوبيخاً .

(١) [ ٣٧ / الصافات / ٢٧ ] و [ ٥٢ / الطور / ٢٥ ] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] ( أَلَمْ تَكُنْ ءَايَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاكْفُرْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ )

[١٠٦] ( قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ )

« أَلَمْ تَكُنْ ءَايَاتِي تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ فَاكْفُرْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ \* قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا »

أى ملكتنا « شِقْوَتُنَا » أى التى اقرفناها بسوء اختيارنا « وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ » أى عن الحق، ولذلك فعلنا ما فعلنا من التكذيب . قال أبو السعود: وهذا، كما ترى، اعتراف منهم ، بأن ما أصابهم قد أصابهم بسوء صنيعهم . وأما ما قيل من أنه اعتذار منهم بغلبة ما كتب عليهم من الشقاوة الأزلية ، فع انه باطل فى نفسه ، لما أنه لا يكتب عليهم من السعادة والشقاوة إلا ما علم الله تعالى أنهم يفعلونه باختيارهم ، ضرورة أن العلم تابع للمعلوم - رده قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] ( رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ )

[١٠٨] ( قَالَ اخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ )

[١٠٩] ( إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامِنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا

وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ )

[١١٠] ( فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ )

« رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ » أى أخرجنا من النار ، وارجمنا إلى

الدنيا . فإن عدنا بعد ذلك إلى ما كنا عليه من الكفر والمعاصى ، فإننا متجاوزون الحد فى الظلم . ولو كان اعتقادهم أنهم مجبورون على ما صدر عنهم ، لما سألوا الرجعة إلى الدنيا ، ولما وعدوا الإيمان والطاعة « قَالَ اخْسَرُوا فِيهَا » أى ذلوا فيها كخس الكلاب « وَلَا تُكَلِّمُونِ »

أى فى رفع العذاب ، فإنه لا يرفع ولا يخفف . ثم أشار إلى علة ذلك بقوله تعالى « إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي » وهم المؤمنون « يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَأَعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ \* فَاتَّخَذَتْهُمْ سَخِرِبًا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُم » أى بتشاغلهم على تلك الصفة « ذَكَرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ » .

ثم أشار تعالى لبيان حسن حالهم ، وأنهم انتفعوا بما آذوهم ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] (إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ)

[١١٢] (قَالَ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ)

[١١٣] (قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ)

[١١٤] (قَالَ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ، لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

« إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ \* قَالَ » أى الله أو الملك المأمور بسؤالهم « كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ \* قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ \* قَالَ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ، لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أى شيئاً ما . أولئك كنتم من أهل العلم . والجواب محذوف ، ثقة بدلالة ما سبق ، عليه . أى لعلمكم يومئذ قلة لبئتكم فيها ، كما علمتم اليوم . ولعلمتم بموجبه ولم تخلدوا إليها .

قال الرازى : الغرض من هذا السؤال التبكيت والتوبيخ ، فقد كانوا ينكرون اللبث فى الآخرة أصلاً ، ولا يعدون اللبث إلا فى دار الدنيا . ويظنون أن بعد الموت يدوم الفناء ، ولا إعادة . فلما حصلوا فى النار وأيقنوا أنها دائمة وهم فيها مخلدون ، سألهم : كم لبئتم فى الأرض ؟ تنبيهاً لهم على أن ما ظنوه دائماً طويلاً ، فهو يسير ، بالإضافة إلى ما أنكروه . فحينئذ تحصل

لهم الحسرة على ما كانوا يعتقدونه في الدنيا . من حيث أيقنوا خلافه . فليس الغرض مجرد السؤال ، بل ما ذكر .

قال الزمخشري : استقصروا مدة لبثهم في الدنيا ، بالإضافة إلى خلودهم ، ولما هم فيه من عذابها . لأن الممتحن يستطيل أيام محنته ، ويستقصر ما مر عليه من أيام الدعة إليها . ولأنهم كانوا في سرور . وأيام السرور قصار . ولأن المنقضى في حكم ما لم يكن . وصدقهم الله في تقاليمهم لسنى لبثهم في الدنيا ، ووبخهم على غفلتهم التي كانوا عليها . وقرئ ( فَسَلِ الْعَادِينَ ) والمعنى : لانعرف من عدد تلك السنين ، إلا أنا نستقله ونحسبه يوماً أو بعض يوم . لما نحن فيه من العذاب ، وما فينا أن نهداها ، فسئل من فيه أن يعد ، ويقدر أن يلتقي إليه فكره . وقيل : فسئل الملائكة الذين يعدون أعمار العباد ويحسون أعمالهم . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٥] ( أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ )

[١١٦] ( فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ )

[١١٧] ( وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ،

إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ )

( وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ )

« أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا » أى بغير حكمة ، حتى أنكروا البعث « وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ » أى للجزاء « فَتَعَالَى اللَّهُ » أى تعظم عما تصفون ، لأنه « الْمَلِكُ الْحَقُّ » أى المتصرف وحده ، الذى قصد بالخلق معرفته وعبادته . والذى لا يترك الجزاء بل يحق الحق « لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ » أى العظيم المجيد . وقرئ بالرفع « وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ » .

قال ابن جرير<sup>(١)</sup> : أى : ومن يدع مع المعبود الذى لاتصلح العبادة إلا له ، معبوداً آخر لاحجة له بما يقول ولا بينة . فإتباعاً حساب عمله السيئ عند ربه . وهو موفيه جزاءه إذا قدم عليه . فإنه لا ينجح أهل الكفر بالله ، عنده ، ولا يدركون الخلود والبقاء فى النعيم ، قال الزمخشري : وقوله ( لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ) كقوله<sup>(٢)</sup> ( مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا ) وهى صفة لازمة ، نحو قوله<sup>(٣)</sup> ( يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ) جىء به للتوكيد ، لا أن يكون فى الآلهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان . ويجوز أن يكون اعتراضاً بين الشرط والجزاء . كقولك ( من أحسن إلى زيد - لا أحق بالإحسان منه - فالله مثيبه ) .

قال فى ( الاتصاف ) : إن كان صفة ، فالمقصود بها التهكم بدعى إله مع الله ، كقوله<sup>(٢)</sup> ( بَلْ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا ) فنفى إزال السلطان به ، وإن لم يكن فى نفس الأمر سلطان ، لا منزل ولا غير منزل .

وقال الرازى : نبه تعالى بالآية ، على أن كل ما لا برهان فيه ، لا يجوز إثباته ، وذلك يوجب صحة النظر وفساد التقليد . انتهى .

ثم أمر تعالى نبيه بالابتهاال إليه واستغفاره والثناء عليه ، بقوله « وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ » أى خير من رحم ذا ذنب ، فقبل توبته .



(١) انظر الصفحة رقم ٦٤ من الجزء الثامن عشر ( طبعة الحلبي الثانية ) .

(٢) [ ٣ / آل عمران / ١٥١ ] . (٣) [ ٦ / الأنعام / ٣٨ ] .